

رسائل الشيبيني الكبير

بم الامتاز عبد الحميد الدجيلي .

(الأدب الأنشائي بين سنة (١٣٠٠هـ)

وسنة (١٣٢٤هـ) كما مثله الأديب الكبير

الشيخ جواد الشيبيني في رسائله الثرية)



١ - التقيت يوماً بصديقي الأديب الفاضل الطلعة الشيخ

علي الخاقاني فاذا به يفاجئني ويده مجموعة خطية . وسرعان

مبادرته بالسؤال عنها لعلمي فيما يجنيه هذا الأديب من

مجاميع ثمينة يتعب في تحصيلها ويجهد نفسه في استنساخها .

فقال لي : هي طرفة ادبية جميلة . هي رسائل الشيبيني الكبير

الشيخ جواد قد خطت منذ عهد عن نسخة المؤلف فدونهاها

فتصفحها . فاخطقتها من يده وأنا كلي شوق الى مثل هذه

المجاميع لأطلع على الدور الادبي الذي مثله فطاحل ادباء

انه في سبعمائة مجلدة (١٨) ومهما يكن من أمر اختلا فهم ،

فالكتاب يدل على سعة معارف صاحبه في هذا الباب .

وقد كان لابن بNDAR بغداد خزانة كتب واسعة جداً ،

فذكر محيي الدين القرشي في ترجمته انه « حصل كتباً لم

يملك أحد مثلاً ، حصلها من مصر وغيرها . ويبتع كتبه

في سنين ، وزادت على أربعين ألف مجلد . قال ابن

النجار : وحدثني بعض أهل العلم ، ان أبا يوسف ورد

بغداد ومعه عشرة جمال تحمل دقاتر وأكثرها بالخطوط

النسوبة ومن الأصول الخبورة في أنواع العلوم . وحدثني

النجف في ذلك العصر اي عصر القرن الثالث عشر وما

قبله وما بعده حتى عصر النهضة في العراق الذي ابتدأ في

اوائل عهد الدستور العثماني عام (١٩٠٨) م

نعم اختلفتها فرأيتها مجموعة من رسائل النثر كتبت بين

سنة (١٣٠٠هـ) وسنة (١٣٢٤هـ) اسمها الشيبيني الكبير

(المؤلف المثلثون على صدور الدهور) بخط احد ادباء النجف

وشعرائه الشيخ حسن بن العالم الزاهد الشيخ علي حمود

وشقيق العالم الأديب الفاضل الشيخ حسين الشيخ علي

حفظه الله . وقد توفي الناسخ في اواسط شبابه بداء السل

عام (١٣٣٧هـ) . ومن المعلوم ان هذه المجموعة التي جمعها

صاحبها ليست كل مال الشيبيني الكبير من الرسائل فله رسائل

اخرى كان يتسلى بكتابة بعضها في دور هرمه او يرسل

نادراً بها بعض من له علاقة معهم ، والذي يهمننا هي هذه

الرسائل التي تمثل هذا الدور الثري النجفي . وبعد المداولة

بيننا وبين الأستاذ الخاقاني اقتنع ان اكتب فصلاً عنها

بعض أهل الحديث عنه ، قال : ملكت ستين تفسيراً « (١٩)

وهذا الخبر الذي نقلناه عن القرشي بصدد خزانة الكتب ،

أوردده الصفدي في الوافي بالوفيات باختلاف عظيم ،

ولاسيما فيما يخص الأرقام ، فقد قال : « ... ويبتع كتبه

في سنين ، وكانت تزيد على أربعة آلاف مجلدة « (٢٠)

ونحن نميل الى هذا القول الثاني الذي يذكر ان ما في

الخزانة كان نحواً من أربعة آلاف مجلد . وذلك لأن عشرة

جمال ، على ما نقلنا أعلاه ، لا يعقل ان تحمل أربعين ألف مجلد .

(١٩) الجواهر المضية ١ : ٣١٦ .

(٢٠) العلم الجديد (٦ : ٤٢)

(١٨) العلم الجديد (٦ : ٤٢) .

لاحلل بعض ما جاء فيها خدمة للأدب النجفي وللأدب في العراق. فكانت هذه المقالة التي أقدمها لقراء البيان الذي أزمع أن يصدره الخاقاني ٢ - أسلوب هذه الرسائل . مقارنة بينها وبين الأدب في الفترة المظلمة ، وفي أواخر عهد الفترة في مصر . كان النثر في الفترة المظلمة حتى عصر النهضة وفقاً على أساليب القاضي اليسانبي والعماد الاصفهاني وصاحب اليتيمة . واخيراً صاحب السلافة : كل ذلك تعقيد في الألفاظ وتشجيع في أواخر الجمل وصناعة متكلفة وعبارات مجنسة ومبالغات سخيفة واخيلة جائلة تبعد عن الفطرة واغراق في المدح أو الذم ولم تتغير هذه الطريقة البيسانية الثقيلة على اكتاف الأدب حتى أواخر عهد محمد علي في مصر ، أما في العراق فلم تتغير الا بعد عهد الدستور العثماني . وكاتبنا الذي نكتب عنه من اولئك الافراد الذين عاشوا في هذا الدور وتحت أثقال هذا الكابوس فهو في ثمره لا يتخطى هذه الأمور الا تحطى العبقري النابه حينما يرى أثقال التقاليد فيتغلب منها أحياناً ويخضع لها كثيراً ، فهو وان بقي حياً حتى هذه السنين الأخيرة ولكنه في رسائله فرد من افراد ذلك الدور وان ترى بين رسائله ذلك البضيص من جزالة اللفظ وحسن الاستعارة ولطافة الابداع ودقة التشبيه . لذلك لا نريد بتسجيل هذه الشخصية الثرية إلا تسجيلاً لناحية النثر حينذاك في النجف وما يحوم حولها من الحلة وكر بلا وغيرها . وقد راسل ادبنا أدباء العراق والبحرين والشام وراسلوه وكاتبهم وكاتبوه وكلهم لم يخرج عما ذكرنا من طراز الأسلوب القديم . نعم لقد كان يبرزهم بقوة المحافظة

وذكاء الذهن وجزالة الاسلوب وكان كما قلنا يسمو أحياناً سلبهم فكان في أسلوبه جمل بدیعة وحكم تجريبية وتراكيب قوية فائقة الجمال أحياناً ومبتذله أخرى رجوعاً الى طريقة ذلك العصر وما قبله . وكان يستشيد لك بشعره وبغير شعره فيأتي بالمطرب المعجب ولاسيما والنائر شاعر من كبار الشعراء لذلك جاءت أساليبه ديباجة منسوخة عن السلافة وكتب العماد وصاحب اليتيمة . ولو كان هذا النائر في تأليفه قد سجل لنا ما كان يرسل له من اولئك الادباء من دون ان يختصر مؤلفه على رسائله لا أرانا مجموعة قلبية ثرية تمثل لنا هذا الدور الذي كان سائداً على ادباء النجف واطرافها . والرسائل هي مجموعة اجوبة وتحرير ومراسلات كان يعقبها مثلها ممن يرسلهم ويراسلونه . وهذا الدور الانشائي وان أصبح غير مرغوب فيه الآن ولكنه على كل حال دور مر على الأدب العربي منذ عهد القامات ومر كذلك على ادباء النجف واطرافها منذ مدة طويلة عميقة في التوغل بالزمن . ونحن نقول مر على النجف واطرافها لانا نعرف ان الانشاء كان في بغداد وما يتبعها حينذاك يحمل صبغة عامية ركيكة في خليط من التركية والفارسية والعامية والفصحى اذا استثنينا بعض اعلام بغداد والموصل . نعم وهذا الدور الذي مر على بغداد من جراء حلول الأمراء العثمانيين مر كذلك على مصر من جراء الامراء الاتراك والجرأ كسة والمماليك حتى عصر محمد علي باشا وان شئت أن ثبت ذلك بالبرهان فراجع كتاب تذكرة الشعراء الذي نشره الاب انستام وكتاب عجائب الآثار للجبرتي لتعرف صحة ما قلناه .

٣ - المراسلون في هذه الرسائل :

اسجل هنا اسماء المرسلين ومن كاتبوا هذا الاديب
وكاتبهم خدمة لاولئك الاعلام وخدمة لتلك الصفحة
الادبية العراقية التي مرت على العراق والنجف خاصة والتي
تفتخر بها كل الفخر لانها حفظت لغة القرآن في عهد كان
الحاكمون والمتسلطون في دوائر الدولة يجبرون الناس على
بيان شكواهم باللغة التركية . والذي يظهر لنا من تلك
الرسائل ان الشيبلي الجواد كان متصلا باغلب رجال
العراق من المساسة والعلماء ورجال الدين والادب وكان
احياناً ينمق الأجوبة عن لسان اولئك الاعلام في الدين
والسياسة بذلك الاسلوب المرغوب حينذاك . واليك ذكر
بعض ماجاء من اسماء اولئك في تلك الرسائل: (١) رسائل
بينه وبين العالم الاديب الشيخ هادي بن الشيخ عباس بن الشيخ
علي ال كاشف الغطاء (٢) رسائل ارسلها الى آل السعدون
كاشيخ سعدون والشيخ مزعل (٣) رسائل بينه وبين
العالم الاديب السيد ناصر بن السيد احمد الاحسائي
(٤) رسائل بينه وبين آل القزويني (٥) بينه وبين أبي
المحسن في كربلاء (٦) رسائل عديدة عن لسان مشير
بغداد الى الوهايين وأهل الجزيرة من التأثيرين على الدولة
(٧) بينه وبين السيد عبد المطلب بن السيد داوود (٨) رسائل
على لسان بعض الاعلام في العراق للسلطان عبد الحميد
والصدر سعيد باشا وغيرها من الولاة والقضاة والحكام .
(٩) رسائل بينه وبين آل العلق في النجف (١٠) مقامات
أدبية ارسلها لبعض الادباء ومناقشات لغوية (١١) رسائل
بينه وبين آل النقيب في بغداد (١٢) بينه وبين آل

الرشدي في كربلاء (١٣) بينه وبين العلامة الفضال الشيخ محمد
رضا الاصفهاني في اصفهان والذي كان صديقاً حميماً له وولف
حينما كان في النجف (١٤) بينه وبين رئيس بلدية كربلاء
عبد الميدي آل حافظ (١٥) على لسان آل الكليدار في
النجف الى علي افندي آل الطالباني في الموصل (١٦) بينه
وبين بعض القضاة في النجف والحلة وبغداد . (١٧) رسائل
على لسان العلامة الشرياني الى السلطان عبد الحميد وبعض
امراء ايران . (١٨) بينه وبين بعض الأدباء في فيضان
الفرات (١٩) بينه وبين السيد محسن العاملي في الشام بعد
مغادرته النجف (٢٠) على لسان العلامة مرزا حسين آل
مرزا خليل الى غير ذلك من الرسائل القيمة وكما قلنا لو كان
المؤلف سجل لنا مراسلات اولئك الاعلام ايضاً لاصبحت
الرسائل مجموعة فنية تاريخية ادبية عن تلك الصفحة وان
كنت اعتقد ان تلك الرسائل لا تزال محفوظة في بيوت
اولئك الاعلام وان اقرض اغلب اولئك فلو جمعت لتمثل
لنا ذلك الدور كما يراد بلؤرخ الأدب .

٤ - نماذج من تلك الرسائل الممتعة الوصف والتشبيه :

من رسالة وصفية نادرة المثال بديعة الدقة حسنة الاستقصاء
كتبها الى العلامة السيد حسين القزويني يتشكى فيها شكابة
ادب ومداعبة من الاديب الفاضل السيد مهدي بن السيد
محمد الموسوي البغدادي لعدم مساعدته في تحصيل خطة دار
في المحلة الجديدة التي اراد العثمانيون بناءها في النجف .
وبعد ان خطت هذه المحلة [١] ولم يعط هذا الشيخ بيت فيها
[١] ولكن من جراء النزاع بين الاوقاف والمالية لم يتمكن
الاهلون من البناء فيها واخيراً في دور الحكومة العراقية
خطت هذه المحلة المسماة بمحلة غازي

العنكبوت . فيما نحن مقيمون مرتحلون . نتقل تنقل البدور
لبروج الدور . طوراً يعدل منا الجار وطوراً يجور . ينكرنا
لشدة عرفاننا بالانتقال . فعطفنا أبا صالح ولو اشرافة مطمع :
والتفاته فقد ضاق الخناق والله الموسع . . الخ الرسالة
وهي طويلة :

٢ - من الرسالة الثانية من تلك الرسائل التي كتبها إلى
اهل الجزيرة وأهل نجد عن لسان مشير بغداد ولسان
الجيش الذي توجه لتلك الجهات محارباً :

ليعلم من وعث اذنه من قبائل جزيرة العرب . خلفاء السرج
والقرب . وعموم اهل القرى والطنب . ان ناظر الاسلام .
سلطان السلاطين . عصمة المسلمين . صان الله بوجوده بيضة
الاسلام عن الصدع وجعلكم كسائر رعاياه ملقين له بزمام
الطاعة والسمع . سرنا نحوكم لننشيء الاصلاح بينكم
والتراضي . وامرنا بالصفح عن القتل الماضي . وان نحمد
نيران الفن . ونهتج بكم اوضح السنن . ووطننا واخذ الله
ارضاً مالمسوى المسلمين فيها وطنة قدم . ولا تغير الموحدين
يخفق في يقاعها علم . ورأينا ان تبرع ابواب مسامعكم بخطاب
الارشاد . ونجمع شملكم على الصفاء والاتحاد . . الخ

٣ - وكتب عن لسان حجة الاسلام جناب الميرزا

حسين آل مرزا خليل حائناً عموم المسلمين على الاعانة في
الخط الحديدي الحجازي الذي أزمع السلطان عبد الحميد
على مده من الشام وقد طلب السلطان من العلامة الميرزا
حسين ان ينشر بين المسلمين مكتوباً في الحث على ذلك :
. . . حمداً لمن أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى
المسجد الأقصى . وشكراً تحصى المخلوقات ولا يحصى . . .

كتب الى السيد حسين يصف داره وسوءها وانها
ايجار وليست ملكاً له ويرجو منه ان يسعى له في تحصيل
خطة له هناك :

« دار الهوان وما أدراك ما دار الهوان : هي اضيق
ورحة دارك من وجار الافعوان . اذا تنفس نسيم الفجر
صلت صلاة الآيات جدرانها . واكثرت السجود طوراً الى
القبلة وطوراً الى الجدي اركانها :

قديمة عهد بالبناء كأنما

على كسر قلمي لاعلى الرفع مبنها

لضيق نزلناها ولو تسعف المنى

نزلنا باوكار القطا وازلناها

إذا هليل الرعد قهته سقنها بلاعجب . وان أرشف
شرفاتها الندى نشوة الطل مالت لا عن طرب . منحية
اضلاع قبها كظهورها من الحرم . كأنها واجل بقعها من
بقايا ذات العباد ارم . روشنها المثقوب كحلق الثرة .
وبئرها العطلة بيننا وبين ماثنا بعد الارض ونهر الحجر . أما
فارحيا ضها فقد شهد وقعة ذي قار . واخشاب ابوابها في
من الواح سفينة نوح نبذتها الينا يد الاقدار .

ولا تسلي عن سردابها فيه

ما يؤلم القلب من يق بلا عدد

ذي ظلمة لوبه الزرقا تحل ضمناً

قالت الى القبر من هذا خذوا بيدي

وأما ترابها ففي كل زاوية منه خيثة جبل . واما مجازها
فصراط غير مستقيم . لا يسلكها السالك الاستعينا بالله
من الشيطان الرحيم . ولو ملكناها لقنعنا منها بيت

النجف والرأي العام

قلم : مهدي الخزومي

استاذ الأدب العربي في دار المعلمين الريفية

— ١ —



لقد انتهت الحرب العالمية الثانية والقت الامم المتحاربة السلاح ، وباشرت في عمليات تسريح الجيوش الضخمة التي كانت تدير دفة الحرب ، واخذت الدول تسمى في اجتماعاتها ومؤتمراتها الى انشاء عالم جديد يختلف من جميع وجوهه عن العالم الذي سبقه ، الى انشاء دنيا يعيش الفرد في ظلها عيشة كائنا حربية وكائنا اطمئنان ، الى انشاء مجتمع ارقى من النواحي الاقتصادية والثقافية والصحية .

نعم لقد انتهت الحرب ولكن يالهول ما كان في بلادنا بعدها ، فلقد عاشت وكائنا لم تتأثر بما حولها ، او كائنا لم تكن جزء لا ينفصل عن الاسر العالمية الاخرى ، لقد عاشت بمعزل عن هذه التيارات الجارفة القوية التي جاء بها التطور العالمي السريع ، لقد عاشت ولا تزال كذلك ، منطوية على نفسها عاكفة على ماورثته من عصورها المظلمة التي ودعها

يا ايها المتعبدون باحكام الشريعة المحمدية : المتصفون بصفات الحمية . المتقادون لامثال الاوامر الاسلامية . تأسوا بعمل السلطان العادل . واجعلوا ماتفقونه لكم يوم لا ينفع مال ولا بنون ذخرآ . وما تقدموا لانفسكم من خير تجوده عند الله خيراً . وأعظم وأجزل . واغتموها فرصة . تكن لكم اليد على من بعدكم من القرون والمئة فان الله

العالم دون اسف عليها ، راضية من دنياها بالكفاف تعيش عيشة الزهاد المتصوفين وليست منهم ، وتظاهر بالاخذ باسباب المدينة وهي بعيدة عنها ، وهي بالاجمال تعيش عيشة الحائر المتردد الذي لا يدري اين يولي وجهه لا يريد ان يبقى على ما هو عليه لانه يرى ركائب العالم تسير على مرأى منه ومسمع ، ولا يريد ان يقدم لانه تعود هذا الجمود الذي ذاقه فأنس به وجربه فارتاح اليه .

ولست اقصد من بلادنا كل ماضته الحدود الجغرافية في ذلك القصد . ان وقع . ظلم لكثير من المدن التي برهنت انها لا تطبق الجمود او انها ستمته واخذت تنشب بكل ما هو جديد ، تستحث ركائبها لتلحق بالقوافل السائرة قدما ، لست اقصد كل ذلك وانما اقصد مدينة كانت يوماً محط آمال الشعب وقبلتها التي تتجه اليها علياً وادياً والتي تعذ خادماً اميناً على التراث العربي الحميد ، والتي سهرت عليه وجاهدت في سبيل ابقائه بالرغم من تلك الهجمات العدائية التي كان يقوم بها حزب الاتحاد والترقي الذي كان من اول بنوده ان يلحق هذه البلاد العربية ، بالوطن العثماني وان يجعلها جزء منه ، وذلك لا يكون قطعاً . الا بالقضاء على اهم ما يستند اليه في استقلاله عن

إشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة . هذا صراط الله بكم الى الحرمين مستقيماً . رزقكم الله الاتفاق فيه وذلك هو الفوز العظيم . الخ وهي طويلة جداً .

اكتفينا هنا بهذه النماذج التي اخترناها من بين الرسائل الفاتحة في مجموعة هذه الرسائل التي يغلب عليها اسلوب المقامات كما قلنا . عبد الحميد الدجيلي